٤ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

وفي بعض المنازل توجد حجرة أخرى تسمى « مقعد » ـ كما مر بك في شكل ٤ ـ ترتفع عن الطابق الأرضي نحو ثماني أقدام أو عشر وتستعمل كالمنفرة، وهي ذات واجهة مكشوفة لها عقدان أو أكثر ودرابزون منخفض. كذلك يوجد في الطابق الأرضي مكان مربع يسمى « تختبوش » له واجهة مكشوفة يتوسطها عامود يحمل الجدران العليا، وأرضية هي ليوان مبلط عليه مقاعد خشبية طويلة يسمى الواحد منها « دكة » تصف على جانب واحد أو على جانبين أو على الجوانب الثلاثة. وكثيراً ما يرش الحوش أثناء الصيف بالماء حتى تصبح الغرف المحيطة به (أو على الأقل غرف الطابق الأرضي) لطيفة الحرارة. أما تأثيث الغرف فعلى الطريقة السابق وصفها

وبين الغرف العلوية الخاصة بالحريم يوجد غالباً غرفة تسمى « قاعة »، كما ترى أمامك في (شكل ١٢)، وهي عالية بصفة خاصة، ولها ليوانان، واحد على كل جانب، أحدهما أكبر من الآخر. وفي سطح هذه القاعة قسم يعلو الدرقاعة مرتفعاً عن بقية السقف على شكل قبة، يتدلى في وسطه مصباح صغير يسمى « مِسْراق » ذو جوانب من خشب المشربية

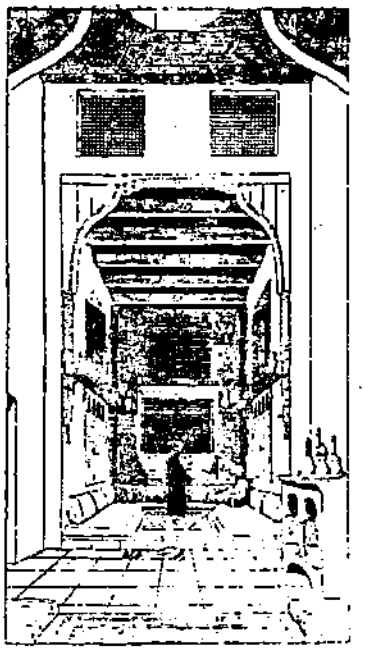

شكل ١٢ ـ (قاعة)

والدرقاعة هنا كثيراً ما تكون من غير فسقية؛ وغالباً تبلط على مثال المنفرة (المنظرة)، وعلى مثالها أيضاً يوجد في القاعة صفة جميلة ودواليب ذوات حشوات دقيقة الصنع، فضلاً عما في هذه الغرفة وفي غيرها من رفوف خشبية ضيقة تمتد على طول حائطين، أو على طول الحوائط الثلاثة التي تحد الليوان مرتفعة حوالي سبع أقدام أو أكثر عن الأرض فوق الدواليب تماماً. ويوضع فوق هذه الرفوف أوان خزفية هي للزخرفة أكثر منها للاستعمال العام[1]. وكل الغرف تعلو إلى أربع عشرة قدماً أو أكثر، ولكن القاعة أكبرها وأعلاها، وهي تعد في المنازل العظيمة غرفة استقبال جليلة.

وفي كثير من الغرف العلوية في بيوت الأغنياء يوجد فضلاً عن الشبابيك نوافذ أخرى من الزجاج الملون يمثل باقات من الزهر وطواويس ورسوما أخرى ذات زخرفة مرحة فاخرة، أو نماذج خيالية ذات أثر في النفس لطيف. وتلك النوافذ الملونة الزجاج يطلق عليها لفظ « قمرية »[2]، ارتفاعها يتراوح بين قدم ونصف وبين قدمين ونصف، وعرضها من قدم إلى قدمين؛ وهي تُصَفُّ بطول القسم الأعلى من مشربية النوافذ البارزة، أو يعلو بعضها هذه المشربيات بحيث تكون مربعاً كبيراً، أو توضع في أي مكان في أعلى الجدران منفردة أو مزدوجة كل زوج بجانب الآخر. وهذه النوافذ الزجاجية تتكون من قطع صغيرة من الزجاج المختلف الألوان، المثبتة بالجص في إطار من الخشب. وكثيراً ما تزين حيطان بعض الغرف بصور غليظة للمسجد الحرام، أو لقبر الرسول (صلعم)، أو لبعض الزهور، أو لموضوعات أخرى يصورها صناع الوطنيين المسلمين الذين يجهلون القواعد الأولى للرسم النظري،

(١) في البيوت الكبيرة يوجد علاوة على القاعة الرئيسية الخاصة بالحريم مخدع مرتفع مخصص للمغنيات حتى يستمتع من أنظار الرجال من العائلة أو من الزائرين (وفي الحالة الأخيرة تنسحب النساء) وستجد وصف هذا في فصل الموسيقى

(٢) هذه الكلمة مشتقة من « قمر »، ويعتقد البارون هامر بورجستال Baron Hammer Purgstall أن أصلها من خوماروج (أو كما يسميه العرب خمارويه)، وهو أحد أمراء بني طولون، وكان يحكم مصر في أواخر القرن التاسع من الميلاد، وهي في رأيه تثبت أن فن تلوين الزجاج كان مزدهراً في مصر في هذا العصر

فيشوهون هكذا ما يحاولون أن يزينوه . وفى أغلب الأحوال تعمل هذه الرسوم الملطخة إرضاء لذوق الأتراك الردىء . وقلما يوجد نظيرها فيما بنى على الطراز العربى الجميل ، وأحياناً تزين الحوائط بعبارات عربية من حكم وغيرها تكتب على ورق بخط جميل ، ثم توضع فى أطر مجهزة بألواح زجاجية . وليست هناك غرفة خاصة تؤثث للنوم : فالسرير يطوى أثناء النهار ويوضع على جانب ، أو فى غرفة ملحقة تسمى « خزنة » تعد للنوم فى الشتاء . وفى الصيف ينام الكثيرون فى أعلى المنازل . ويغطى الجزء المرتفع من الأرضية المبلطة بالحجر بحصير أو بساط ويوضع فوقها ديوان ، وهذا هو الأثاث الكامل للغرفة .

وعند تناول الطعام يؤتى بصينية مستديرة توضع فوق كرسى منخفض ، ويجلس الآكلون حولها على الأرض . وليس هناك موقد[1] ؛ وإنما تدفأ الغرفة بفحم الحطب الذى يحرق فى مجامر . ولكثير من المنازل عند القمة مسقط منحدر يسمى « ملقف »[2] ويكون غالباً من ألواح خشبية أو من خشب وقصب ، ويغطى فى الحالة الأخيرة بالجص ويبيّض من الداخل والخارج ، وفتحته تتجه نحو الشمال أو نحو الجنوب ليدخل النسيم البارد الذى يهب من هاتين الجهتين إلى « فسحة » — غرفة مفتوحة — سفلى ، وهناك عادة فسحة قبل مدخل كل غرفة أو أكثر من الغرف الرئيسية ، فيها يجلس أفراد العائلة أو ينامون صيفاً ...

ويجهز كل باب بقفل خشبى يسمى « ضَبَّة » كما ترى فى (شكل ١٣) ؛ ورقم ١ من هذا الشكل هو منظر أمامى للضبة والمزلاج مسحوب للوراء . أما الأرقام ٢ ، ٣ ، ٤ فهى مناظر خلفية لأجزاء القفل كل على حدته والمفتاح . وفى رأس الضبة مسامير صغيرة (أربعة أو خمسة أو أكثر) تسقط فى ثقوب مقابلة لها فى المزلاج المتحرك كلما دفع إلى الهجم . وفى المفتاح أيضاً مسامير مطابقة لتلك الثقوب تدخل فيها فترفع المسامير الأولى وحينئذ يمكن سحب المزلاج للوراء فيفتح القفل . ويبلغ طول قفل باب الشارع أربع عشرة بوصة تقريباً . وأبواب الغرف والدواليب الخ . من سبع إلى تسع بوصات تقريباً . أما أبواب الحارات والمبانى العامة فأقفالها من النوع نفسه ، ولكن طولها غالباً قدمان أو أكثر . وليس من الصعب فتح هذا القفل

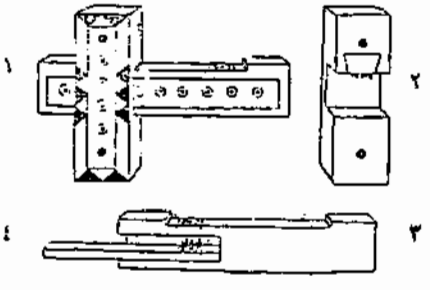

شكل ١٣ — (مزلاج خشبى)

ويلاحظ أن رسم أكثر المنازل يعوزه النظام . فالغرف مختلفة الارتفاع بحيث يجب على الإنسان أن يخطو عدة درجات عندما ينتقل من غرفة لأخرى ملحقة بها . وغاية المعمارى الأولى هى جعل المنزل خاصاً بقدر الامكان ، وخصوصاً قسم الحريم ؛ فيشيد المنزل بحيث لا تطل النوافذ على غرف منازل أخرى . ويراعى المعمارى غرضاً آخر فى بناء منازل الموسرين والعظماء وهو أن يجعل للمنزل باب سر[1] يستطيع الساكن أن يهرب منه فى حالة الخطر ، أو يمكن العاشقين المرور منه . ومن الشائع أيضاً بناء مكان لإخفاء الكنوز يسمى « مخبأ » يكون فى جانب من المنزل . وفى حريم المنازل الكبيرة حمام يستخدم على طريقة الحمامات العمومية

(١) إلا فى المطبخ حيث توجد عدة أوعية صغيرة للنار مبنية بالآجر . لهذا ولأسباب أخرى (من بينها اعتدال عادات الشعب البتسرة واعدام الستائر فى الغرف وتشييد الأدوار بالخشب ثم تغطيته بالأحجار) قلما تحدث حرائق فى القاهرة . ولكن عندما يحدث مثل هذا الحادث يشب حريق هائل ، لأن هناك كمية كبيرة من الخشب الأبيض اليابس مستعملة فى بناء المنازل

(٢) انظر شكل رقم ٤

(١) وهذه العبارة تطلق أحياناً على الباب المؤدى إلى الحريم

وقد أشرت إلى طراز معمارى آخر على الطريقة التركية جرى عليه الأغنياء أخيراً فى بناء منازلهم وتلك المنازل لا تختلف كثيراً عن تلك التى سبق وصفها ما عدا النوافذ . فهى فى الغالب يوضع بعضها بجانب بعض تقريباً . وعند ما تشغل الحوانيت الجزء الأسفل من البناء فى شارع ما (كما هو الحال فى شوارع العاصمة الكبيرة ، وفى بعض الشوارع الصغيرة) يقسم البناء العلوى عادة إلى مساكن منفصلة يطلق عليها اسم «ربع» وتلك المساكن ينفصل بعضها عن بعض ، وكذلك عن الدكاكين تحتها ، تؤجر العائلات التى لا تقوى على دفع إيجار منزل بأكمله . وكل مسكن فى الربع يحتوى على غرفة أو غرفتين للجلوس والنوم ، وعلى مطبخ ودورة مياه . ويندر أن يكون المسكن مدخل من الشارع على حدته ، فليس هناك إلا مدخل واحد وسلم واحدة لعدة مساكن . والغرف فى الربع تشبه غرف الدور الخاصة السابق وصفها . وهى لا تؤجر أبداً بفرشها . ومن النادر أن يسمح للأعزب أو للجارية بالسكن فى تلك الربوع أو فى أى مسكن خاص . ومثل هذا الشخص، مالم يكن يعيش مع أبويه أو مع أقاربه المقربين ، يضطر إلى السكن فى وكالة (خان) ؛ وهى بناء مخصص لاستقبال التجار وإيداع بضائعهم[1]

وفيما عدا العاصمة وبعض المدن الأخرى ، قلما توجد منازل كبيرة أو جميلة . أما مساكن الطبقات السفلى وخصوصاً طبقات الفلاحين فيبدو عليها الفقر المدقع . فأكثرها مبنى باللبن والطين وبعضها ليست إلا أكواخاً عادية . ومع ذلك فأغلبها يحوى غرفتين أو أكثر بالرغم من أن القليل منها يتألف من طابقين . ويوجد فى مساكن فلاحى الوجه البحرى ، فى غرفة ما ، « فرن » فى الطرف الأقصى من المدخل شاغلاً عرض الغرفة كلها ، وهو عبارة عن دكة من الطوب والطين لا يزيد ارتفاعها على صدر الإنسان ، وسقفها مقوس فى الداخل ومسطح عند القمة . ويندر أن يمتلك الفلاحون لحافاً يلتحفون به فى ليالى الشتاء ، فينامون كلهم على سطح الفرن بعد أن يوقدوا فيه ناراً ، أو يتمتع بهذا الترف الزوج وزوجته ، بينما يفترش الأطفال الأرض . وفى الغرف فتحات صغيرة مرتفعة يدخل منها النور والهواء وتشبك أحياناً بقضبان خشبية . وتكون السقوف من جذوع النخل وتغطى بالجريد والسعف وسيقان الذرة ، وتكسى بطبقة من الطين واللبن . ولا يتعدى أثاث المنزل حصيرة أو حصيرتين للنوم ، وبعض أوعية من الفخار ، ورحاً لطحن الحبوب . ويلاحظ أن فى كثير من القرى أبراجاً للحمام كبيرة مربعة الشكل مع ميل خفيف فى جدرانها نحو الداخل (مثل كثير من مبانى قدماء المصريين) ، أو على شكل قالب سكر ، تبنى على أسطح الأكواخ باللبن والفواخير والطين . وأكثر قرى مصر يقع على أطلال مرتفعة بحيث لا تصل إليها مياه الفيضان . وتحيط بها أو تجاورها أشجار النخل . وهذه المرتفعات تتكون عادة من بقايا أكواخ سابقة أو مدينة قديمة ، ويبدو أنها تزيد بقدر ما يزيد مستوى الوادى من الرواسب وبقدر ما يزيد مجرى النهر

(يتبع)

عبد الحميد لطفى السحار

(١) ومع ذلك فالفرنج الآن معفون من هذا النوع